



كنت أظن أن المجتمعات في الجزيرة العربية - وفي نجد تحديداً - تحتوي على أكبر قدر من العصبيات المناطقية والاجتماعية والتربوية العنصرية والطبقية "بدوي وحضري، قبلي وخضيري ... الخ" ..

لكن منذ متاعتي لتفاصيل المشهد السوري بعد الثورة واقترابي أكثر من تكوينات المجتمع وتنوعاته وانقساماته وجدت شيئاً مذهلاً لم يكن يظهر على السطح، حجم مخيف من التنوع الممزوج بتمايزٍ واعٍ بين مكونات المجتمع وصلت لحدٍ يتتجاوز ذلك الموجود في نجد..

التمايزات الطبقية والاجتماعية والمذهبية في المجتمعات المدنية في دمشق وحلب وحمص وحماة والدير وسواهم بحسب الأحياء والوضع الاقتصادي والتاريخ المناطيقي والطباقي لسكان الحي "مثلاً أحياء الشهباء والروضة مقابل الفردوس والشعار في حلب" و"من داخل سور أم من خارجه في دمشق" إضافة للالتماءات العرقية والطائفية، فضلاً عن العلاقة غير الودودة مع الريف الذي هو بدوره يحتوي على طبقات وانقسامات جهوية واجتماعية "بين الريف الحضري والريف العشائري مثلاً" ومصطلحات وأوصاف تُستخدم في مدن وأرياف دون أخرى وتؤدي بتراثية تتضمن تحيراً "مثل الشاوي والضيعجي"، وحضور كل ذلك في المخيال الشعبي ووجوب استحضاره ضمن الجهاز التفسيري لما حصل بعد الثورة وعلاقة الأرياف بالمدن وتنوع الفصائل.

حتى اللهجات في المدينة الواحدة تحوي قدراً من الاختلاف بحسب الانتماء الطبقي أو المذهبي، إضافة لوضوح التمايز بين أبناء العشائر وأبناء الحواضر ومختلف الإثنيات "العرب والكرد والتركمان والكلدان والأرمن والسريان والشركس والشيشان ... الخ".

عظمة الثورة أنها أنتجت من كل هذا التشظي روحًا وحدوية طفت على كل هذه الانقسامات، وجعلت المدن تنتفخ إثر التعدي على مدينة تبعد عنهم مئات الكيلومترات دون وجود أي روابط مدينية أو وسائل اجتماعية، ودفع الملايين من مختلف المدن والأرياف وفي مئات نقاط التظاهرة إلى التأكيد على هتاف وشعار "الشعب السوري واحد"، وجعلت عشرات الآلاف المتظاهرين من حمص وبانياس وحماء والدير وداريا وسواهم – ربما لم يزرت معظمهم درعا في حياته – يهتفون في جمعة العزة: "يادروا إحنا معاكي للموت"، وصنعت لنا تاريخاً خالداً من أسماء الجُمُع التي كانت تُعبّر عن الإرادة الواحدة والمصير الواحد.

لكن المؤسف أن هذه الروح الثورية الوحدوية تراجعت بعد الإخفاقات التي شهدتها الثورة لصالح العصبيات والانقسامات التقليدية العميقية حين بدأ هذا الميكانزم يعمل تحت ضغط الخيبة والتراجع وفشل مشاريع التوحد بين قوى وفصائل ارتبطت بعلاقة زبائنية مع ممولين وداعمين لديهم كثير من الانحيازات والاشتراطات

المصادر: